ISSN: 2750-6142

المجلد 2، العدد 3، 2023
Vol: 2 / N°: 3 (2023)

المجلة العربية لعلم الترجمة
Arabic Journal for Translation Studies

The Evolution of Scientific Methodology in History; From Ancient Era to the Modern Era

Karim Youssoufi
The Sultan Moulay Slimane University, Beni Mellal. Morocco
Email : youssoufikarim@gmail.com

Received	Accepted	Published
06/04/2023	11/04/2023	10/04/2023

DOI: 10.63939/AJTS.2bdrwg04

Abstract

The production of knowledge in the field of history is considered a social necessity, as evidenced by the collective efforts of societies to investigate and understand their past. Historical research helps societies comprehend their present and chart a course for the future. History studies human history as a product of a cumulative series of events that are often disjointed, with chance playing a role in the development of human history. On the other hand, historical research remains a gateway that reveals the existence of regular laws that govern the course of events in human history.

From this perspective, this work will provide a chronological overview of the development of the historical method since ancient times, starting with the Greek period where the foundations of historical thought were laid, and ending with the current contemporary era. The work will also shed light on the developments that have occurred on two levels in historical studies: the cognitive level and the methodological level.

Keywords: Methodology, History, Historical methodology, Historical studies, Historical investigation

المجلة العربية لعلم الترجمة
Arabic Journal for Translation Studies
المجلد 2، العدد 3، 2023
Vol: 2 / N°: 3 (2023)
ISSN: 2750-6142

تطور المنهج في التاريخ:
من الفترة القديمة إلى المرحلة المعاصرة

كريم يوسوفي
جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال. المغرب
الايميل: youssoufikarim@gmail.com

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2023/04/06	2023/04/11	2023/04/16

DOI: 10.63939/AJTS.2bdrwg04

ملخص

إن إنتاج المعرفة في مجال التاريخ يُعتبر ضرورة اجتماعية، والدليل على ذلك يتمثل في سعي المجتمعات قاطبة إلى البحث في ماضيها والتعرف عليه؛ والحال أن هذا التنقيب التاريخي يساعد المجتمعات على تفهم حاضرها وتلمس طريقها نحو المستقبل. إن "التاريخ" يدرس الماضي الإنساني باعتباره نتاجا لتراكم مجموعة من الأحداث التاريخية المتسلسلة والغير منسجمة في غالب الأحيان، إذ لا محيد هنا عن دور الصدفة في تطور التاريخ الإنساني. من جهة أخرى، يظل العمل البحثي في مجال التاريخ بمثابة البوابة التي تكشف النقاب عن وجود قوانين نظامية تحكم سيرورة الأحداث في تاريخ البشر.

من هذا المنطلق، سأقوم في هذا العمل بجرد كرونولوجي لتطور المنهج التاريخي منذ ما قبل الميلاد، بدءا بالفترة الإغريقية حيث وُضعت اللبنات الأولى للفكر التاريخي وانتهاء بالحقبة المعاصرة الحالية؛ كما سأسلط الضوء على التطورات التي طرأت على مستويين في الدراسات التاريخية، هما المستوى المعرفي والمستوى المنهجي.

الكلمات المفتاحية: المنهجية، التاريخ، المنهجية التاريخية، الدراسات التاريخية، التحقيق التاريخي

تقديم

تعتبر الكتابة التاريخية من أبرز الأنشطة المعرفية والمنهجية، مما يتطلب القيام بعمل منهجي وموضوعي مسؤول. والمؤرخ لا يستطيع أن يباشر عمله دون منهج يعتمد عليه وان يستسلم لمزاجه، فعمله لابد أن يكون منظما سلفا. والباحث المتخصص بكتابة التاريخ له ولع شديد في التمسك بتطبيق طرائق البحث العلمي، وتوظيفها في دراساته التاريخية. مما يفرض التشديد في تحليل المصادر التاريخية وتقويمها وفق النهج الصحيح المتبع. وهنا تبرز مهمة المؤرخ الباحث، إذ عليه أن يتفحص الظواهر ويقارن الروايات وينتقد المصادر ويستقصي الحقائق، ويميز الوهم عن الحقيقة والكذب عن الصدق، وذلك بعقلية الباحث المحقق.

والتاريخ علم له قوانين وقواعد، والتي لا يدركها إلا المؤرخ المحنك القادر على جعل المادة التاريخية مبنية على ضوابط دقيقة ومنهج صارم، قصد إنتاج مواضيع تاريخية، تتسم بدرجة عالية من الدقة العلمية والصرامة المنهجية. ويعتبر التاريخ من العلوم الإنسانية القائمة منذ عصور ما قبل الميلاد، مما يطرح إشكاليات عديدة حول درجة تطور الدراسات التاريخية، من حيث الإنتاجات والمناهج.

وباعتبار التاريخ ضرورة اجتماعية، فكل كيان بشري في حاجة إلى المعرفة التاريخية، لكي تتعرف على ماضيها الذي سيساعدها على تفهم حاضرها وتلمس طريقها إلى المستقبل. فالتاريخ يدرس الماضي الإنساني الذي هو عبارة عن تراكم غامض لحقائق غير منظمة، تبدو كأن الصدفة تحكمها، على الرغم من أن هناك قوانين تحكم مجرى العلمية التاريخية.

في هذا العمل سأقوم بجرد كرونولوجي لتطور المنهج التاريخي منذ ما قبل الميلاد. منذ الفترة الإغريقية والتي وضعت اللبنات الأولى للفكر التاريخي إلى الحقبة الحالية، حيث حققت الدراسات التاريخية تطورات على المستويين المعرفي والمنهجي.

ويمكن تأطير هذا العرض بمجموعة من التساؤلات:

- ***ما التطورات التي حققتها الدراسات التاريخية على المستوى المنهجي منذ ما قبل الميلاد وصولا إلى اليوم؟***
- ***ماهي أهم الثورات المنهجية التي مر منها علم التاريخ؟***

1- تحديد المفاهيم: المنهج والمنهج التاريخي

تختلف التعاريف حول مدلول المنهج، وذلك حسب الحقول المعرفية، ويمكن إعطاء بعض النماذج:

- الخطوات العملية التي يتبعها الباحث في مساره قصد تحصيل العلم.
- عملية منظمة لاكتساب الأدلة وتحديدها وتقييمها والربط بينها، من أجل إثبات حقائق معينة والخروج باستنتاجات.
- المنهج في الدراسات التاريخية: القواعد والشروط التي يجب مراعاتها عند معالجة أي حدث تاريخي، سواء بالكتابة والتأليف أو بالدراسة والتعليم. وهذه الشروط تتناول الكاتب ذاته والمصادر التي يستمد منها مادته التاريخية، ثم الغاية من الدراسة والكتابة، والأسلوب والمصطلحات (بن السلمي، 1986، ص 83).

-" إذا قلنا منهج البحث التاريخي، فإنه يعني القواعد والطرق التي اصطلح على وضعها العلماء، بغرض الوصول إلى معلومات صحيحة، والتأكد من صوابها. فيصبح المنهج بهذا المعنى أداة بحث يمكن استخدامها من قبل مجموعة من الباحثين. وإن اختلفت مناهج حياتهم وعقائدهم وتصوراتهم" (بن السلمي، 1986، ص 84).

وانطلاقا من مختلف الدراسات التي تناولت تعريف المنهج التاريخي، يمكن بناء تعريف شمولي، وذلك عبر التأكيد على أنه عبارة عن مجموعة من الإجراءات التي تتضمن جمع ومعالجة البيانات عن الأحداث الماضية. وذلك بصورة علمية ومنظمة بهدف اختبار الفروض، والإجابة على تساؤلات تتصل بأبعاد تلك الأحداث وأسبابها ونتائجها، مما يساعد على فهمها على نحو أفضل مع إمكانية التنبؤ بالأحداث المستقبلية.

مفهوم التاريخ

تتعدد الدلالات اللغوية والمعجمية لمفهوم التاريخ. ويمكن الاستشهاد ببعض المصادر مثل السخاوي وابن خلدون.

يقول السخاوي: " التاريخ هو الإعلام بالوقت، والتوريخ مثله" (السخاوي، 1963، ص 6)؛ ويقول أرخت وورخت.": "والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت عما كان في العالم، وأما موضوعه فهو الإنسان والزمان".

أما ابن خلدون فيعرف التاريخ قائلا:

"إن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول...وفي باطنه نظر وتحقيق" (ابن خلدون، 2004، ص 12).

2- المنهج التاريخي من خلال الكتابات التاريخية القديمة

الإغريق

عرفت الكتابات التاريخية مع هوميروس بروز الأعمال البطولية، والملامح الأسطورية وتمجيد الأبطال في صورة آلهة، خاصة في ملحمتي الإلياذة والأوديسية.

شهد التاريخ عند الإغريق ثورة معرفية مع أعمال مجموعة من المؤرخين خاصة هيرودوت وتوكيديديس. حيث تطورت الكتابات التاريخية من الشعر إلى النثر مع تطبيق الأسلوب السهل، والفكر الناقد والمعارض، للأساطير المتعلقة ببداية الإغريق ونشاطهم (أبو ضيف، 1987، ص 22).

يعتبر هيرودوت من الرواد الأوائل الذي وضع اللبنات الأولى للفكر التاريخي، حيث أكد على أهمية تدوين التاريخ قائلا، "أن أفهم بكتابي هذا الاحتفاظ بمآثر الرجال لكيلا يمحوها الزمان" (هورس، 1968، ص 25). واتسمت مواقفه بالاحتراز من الروايات ذات الطابع الأسطوري، عبر قيامه برحلات لانتقاء معلوماته. حيث قام بعمل تاريخي متكامل ومنظم من خلال وصف الشعوب وعاداتهم ونظم حكمهم، متحريا الصدق والموضوعية. وجاءت مادته التاريخية خليطا بين التاريخ الثقافي والدراسة الاجتماعية الوصفية.

أكد هيرودوت كذلك على أهمية البعد الجغرافي في توجيه مجرى الأحداث التاريخية (بن سلمان، 2000، ص 85)، فحينما يتحدث عن مصر بدأ بوصف البيئة الطبيعية من حيث شكل الأرض وتربتها ومساحتها، ليستنتج دور المجال الجغرافي في تحديد خصائص الحضارة المصرية، مستخلصا عبارته الشهيرة،" مصر هبة النيل".

شهدت الكتابات التاريخية تطورا منهجيا خاصة مع أعمال المؤرخ توكديديس، الذي يعتبر بحق مؤسس المنهج العلمي النقدي للتاريخ. ويؤكد قائلا: "أنني لا أخشى أن يفقد كتابي بعض ما يجب أن يحتويه من طرافة ومتعة بسبب خلوه من القصص الخيالية المثيرة للعواطف، ولكن إذا ما رأى الباحثون الذين يرغبون في الوصول إلى حقائق الماضي الصحيحة، ليستعينوا بها على تفسير حوادث المستقبل" (أبو ضيف، 1987، ص 4). والمتطلع لكتاب "حرب البلوبونيز"، يتأكد بالملموس مدى أهمية نقد الأحداث وتحليلها قصد بناء أحداث تاريخية، تتميز بنوع من النزاهة الفكرية والصدق التاريخي، حيث جمع الروايات ونقدها وعرض الأحداث محاولا البحث عن الأسباب وفهم الوقائع، مما يوضح بداية التوجه النقدي في كتابة التاريخ برفض الأساطير؛ بالإضافة إلى تحرير النقد في كتاباته التزم توكديديس بالموضوعية. حيث أخبر قارئيه بكل أمانة عن كيفية جمعه لماده التاريخية والاختبارات بفصل الحقيقة عن القصة الخرافية." وقد بذل أقصى جهده في استقصاء المصادر المتوفرة لديه لكي يجعلها شبيهة بالأصل أكبر شبه ممكن" (جوتشلك، 1966، ص 65).

يمكن استخلاص المميزات النوعية والكمية للتاريخ عند الإغريق، من خلال الاستشهاد التالي لويل ديورانت:

" إذا كان فن التاريخ عند هيرودوت يمتاز بالشباب من سحر وقوة، فإن توكديديس بعد خمسين عاما رأيناه قد بلغ حدا من النضوج لم يفقه فيه أي عهد من العهود الذي أعقبته" (ديورانت، 1988، ص 327).

الرومان

لم يعرف التاريخ تطورا في الإمبراطورية الرومانية سواء على المستوى الشكلي أو المعرفي. وأصبح محور الكتابات التاريخية هو تاريخ العالم القديم، مع التركيز على التوسع الروماني وتمجيد بطولاتها، وهذا ما يستنتج من كلام تيت ليف، قائلا:

" أما فيما يتعلق بهذه القصص التاريخية التي تناولت العهد السابق بتأسيس رومة، العهد الذي عرفناه من الأساطير الشعبية أكثر مما عرفناه من الحركات التاريخية، التي لا شك في وجودها فإنني لا أريد نفيه ولا إثباته" (هورس، 1968، ص 31).

يتضح من هذا الاستشهاد التاريخي لأهم رواد الفكر التاريخي لروما، مدى حضور الاهتمام بتأريخ الحضارات السابقة انطلاقا من التراث الشفهي، لكن القدرة التحليلية والنقدية للأحداث التاريخية وإثبات صحتها من زيفها تبقى شبه منعدمة.

اعتبر التاريخ في روما مجرد إعداد للحياة السياسية والعسكرية، وكان يدرس على هامش الأدب، ويسخر لإقناع الناس من طرف الخطيب السياسي، وكانت وظيفة التاريخ الحضارية حفظ ذكرى الأعمال المجيدة للقدماء، حتى يقتدي بهم من يريد أن يتخذ مسارهم في الحياة.

تميز الفكر التاريخي الروماني بعدة خصائص منها:

- التشبع بروح القومية والتعصب للحضارة الرومانية.
- اعتبار التاريخ فرع من الأدب والخطابة.
- توجيه التاريخ من طرف رجال الدين، خاصة في كتابات القديس أوغسطين.

اعتمد المؤرخون الرومان على الأساطير لبناء الأحداث التاريخية. وهذا ما يؤكده جوزيف هورس:

"إن المؤرخين الرومان تمكنوا من إيجاد العلاقات بين الأساطير الدينية، والإمكانات البشرية تلك الأساطير التي كانوا يملكونها منذ وجودهم، والتي أعطوها مظهرا تاريخيا حقا، حتى أنهم جسدوها في التاريخ إن صح التعبير، بينما نرى الأمر مختلفا عند غيرهم من الشعوب، الذين أخرجوا الحوادث البشرية من نطاقها" (هورس، 1968، ص 30).

يمكن تحديد بعض ملامح التجديد المنهجي في الكتابات التاريخية الرومانية، من خلال بعض النماذج من الكتابات التاريخية.

يوليوس قيصر: تميزت كتاباته بدقة الوصف واللغة السلسة.

سوتينوس ونيبوس: اهتما بتاريخ التراجم خاصة حياة القياصرة.

سالوست: القدرة على تحليل الشخصيات (نموذج شخصية يوغرتن).

تيتوس ليفيوس: تفضيل الأسلوب البلاغي على حساب الدقة في تحليل الأحداث التاريخية.

3- المنهج التاريخي في العصر الوسيط

أوروبا الغربية

شهدت الحياة العلمية تدهورا كبيرا. انعكست سلبا على المنهج التاريخي وسادت السلطة المطلقة للكنيسة، مما جعل الناس لا يميزون بين الخيال والواقع. فحلت الملاحم والأساطير الدينية محل الواقعية التاريخية، ومن الكتابات التي تطورت خلال هذه المرحلة: كتب المناقب التي اهتمت بحياة القديسين، وكتب الوقائع. "وتبدو الأحداث في هذه الكتب التاريخية من صنع الآلهة بالدرجة الأولى، والملوك ورجال الدين بالدرجة الثانية".

وعموما فالدراسات التاريخية لم تعرف تطورا، أمام توجيه الكنيسة للفكر التاريخي، وتميز المنهج التاريخي بعدة خصائص:

- غياب تجميع منظم مرتب للمصادر.
- انتشار الفكر الخرافي.
- معظم المؤرخين من رجال الكنيسة.
- المواضيع التاريخية محددة مجاليا نظرا لضعف الاتصالات مع باقي الأقطار.
- غياب التحليل العميق وتفسير العوامل المؤثرة في حركة التاريخية بقوى غيبية دينية.

وهذا ما يؤكده قاسم عبده في كتابه تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية:

"لقد اخذ المؤرخون الأوربيون في العصور الوسطى المحتوى والأسلوب عن الكتاب المقدس، وكانت تلك قيودا شديدة كبلت المنهج التاريخي والكتابة التاريخية طوال العصور الوسطى" (عبده، 2000، ص 163)، ويضيف قائلا:

" ففكرة التاريخ المسيحية تقوم على أساس أن الناس في التاريخ يخضعون لسلطة أعلى منهم، وحركتهم في التاريخ مجرد تنفيذ للإرادة الإلهية" (عبده، 2000، ص 165).

العالم الإسلامي

عرف التاريخ تطورا كبيرا على المستويين الكمي والنوعي، وكانت أغلب الكتابات التاريخية تتناول الجوانب السياسية والعسكرية والدينية، وازدهرت ألوان متعددة من الكتابات مثل: السير، المغازي، الأنساب، التراجم، الطبقات، والحوليات...

اعتبر التاريخ بمثابة أخبار عن حوادث الماضي، وهو العلم الذي يحتمل الصدق أو الكذب، مما يفرض اعتماد مبدأ المطابقة والقياس. وسلك المؤرخون المسلمون في كتاباتهم التاريخية منهجين:

الأول التأريخ الحولي أو حسب السنين، والثاني التأريخ حسب الموضوعات (دول، أسر حاكمة...). ومن عيوب المنهج الأول تقسيم الحادثة على عدد من السنين لذلك عمد بعض المؤرخين في العصور المتأخرة، إلى ترتيب المادة التاريخية في وحدات زمنية أوسع، مثل نظام العقود الذي اتبعه الزهري في كتابه:" تاريخ الإسلام".

أما الطبري فسلك منهج المحدثين، فأورد عن الحدث الواحد العديد من الروايات خاصة فيما يتصل بأحداث القرنين الأول والثاني. أما المسعودي فجمع مادته التاريخية ورتبها حسب الموضوعات متأثرا في ذلك بطريقة اليعقوبي، التي تمزج بين الموضوعات والتسلسل الزمني لتاريخ الحكام والخلفاء، واتبع نفس المنهج الدينوري.

كما شهد المنهج التاريخي الإسلامي الاهتمام بالتاريخ المحلي والإقليمي. ويمكن إعطاء بعض الأمثلة: "تاريخ بغداد" للبغدادي، " تاريخ دمشق" لابن عساكر، و"تاريخ فاس" لابن أبي زرع..

لعب الإسلام خاصة القرآن والسنة النبوية دورا أساسيا في التطورات المنهجية لعلم التاريخ عند المسلمين، وذلك من خلال إتباع نهج المحدثين ورواة السير، والعناية بالإسناد ونقد الروايات الضعيفة، بدمج عدة روايات في خبر متسلسل، وهذا ما نجده خاصة في كتب السير والمغازي (الزهري، الطبري، الواقدي...). ويمكن تأكيد استفادة علم التاريخ من استعارته منهج علم الحديث من خلال الاطلاع على مختلف المصادر والمراجع، وهذا ما نجده في كتاب: تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية:

"بدأ علم التاريخ خطواته الأولى في العالم الإسلامي باستعارة مناهج علم الحديث، باعتبارها وسيلة لضبط الرواية التاريخية وفق مقياس يستند إلى الجرح والتعديل" (عبده، 2000، ص 128).

شهدت الكتابات التاريخية الإسلامية تطورا خلال القرن 14م مع العلامة ابن خلدون، وذهب إلى أن التاريخ فرع نوعي من المعرفة، يهتم بمجال الظاهرات الاجتماعية، ويكشف المؤثرات المختلفة التي تعمل فيه (ويدجري، 1996، ص 164)؛ ووقع المؤرخون السابقون في أخطاء أخذها عليهم ابن خلدون وتتمثل في مايلي:

- نقل الروايات عن السابقين بأغلاطها وزلاتها دون أن يقوموا بنقدها فأوردوها كما سمعوها، حيث يقول: " لم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال...فالتحقيق قليل".

- البعد عن الواقعية والإغراق في الخيال إلى حد تزييف الخبر وتشويهه، والمبالغة في ذكر الأساطير كنسب البربر إلى اليمن.

- الغفلة من تبدل أحوال الأمم والأجيال بمرور العصور والأيام، واعتقادهم أن أحوال العالم في عصرهم هي نفسها في العصور الماضية.

4- المنهج التاريخي خلال العصر الحديث

تطورت الدراسات التاريخية خلال العصر الحديث منذ القرن 15م، حيث ساهمت الحركة الإنسية في إعادة الاعتبار للإنسان ولأعماله. وتميز المنهج التاريخي بالبحث عن النصوص القديمة الأصلية، ثم مقارنتها ونقدها، قصد التخلص من قيود التفسير اللاهوتي للتاريخ، وإعادة بناء الأحداث التاريخية بعيدا عن عنصر المعجزات والعواطف الدينية. لكن الحركة الإنسية لم تحرر التاريخ من محاباة أصحاب السلطة.

يعتبر الإيطالي مكيافيلي من رواد الفكر التاريخي خلال عصر النهضة، حيث استطاع اعتماد الدليل في تحليلاته التاريخية، وليس بناء على تحيز لرؤية أو نظرية مسبقة.

ويمكن تحديد بعض خصائص المنهج التاريخي في عصر الحركة الإنسية بما يلي:

- الرجوع إلى المصادر الأصلية وفحصها بدقة.
- نقد داخلي للنصوص التاريخية وفحصها بدقة.
- السببية التاريخية.

تعتبر فترة القرنين 17 و18م، أهم مراحل التطور المنهجي للدراسات التاريخية بأوروبا الغربية، حيث برزت زمرة من المفكرين خاصة بفرنسا وألمانيا. وتطور المنهج التاريخي نحو العلمية والعقلية مع أعمال كل من فرنسيس بيكون وديكارت. وأصبح التاريخ أداة النقد السياسي وحافزا على الإصلاح.

كتب فرنسيس بيكون خلال القرن 17م مؤلف " تاريخ هنري السابع"، حيث قام بفحص الحقائق والبحث في العلاقات السببية، واقترح استخدام مناهج الدراسة العلمية في التاريخ.

أما ديكارت فدافع عن ضرورة وجود منهج الشك والنسبية في مجال الكتابات التاريخية.

عرفت الكتابات التاريخية خلال عصر الأنوار (ق18م) تطورا كبيرا، وبدأ المؤرخون الفرنسيون يشنون الهجوم على القاعدة اللاهوتية، التي قامت عليها مناهج الكتابة التاريخية في العصور الوسطى. ويعتبر فولتير أهم رواد التجديد في المنهج التاريخي، وذلك من خلال إدخاله البعد الفلسفي في التاريخ، وتخليه عن النظام الحولي والتتابع الزمني للأحداث، وتعويضه بنظام الترتيب على أساس الموضوعات.

عرف التاريخ خلال القرن 19م بأوروبا الغربية ظهور تيارين في التجديد المنهجي التاريخي:

- تيار الواقعية الموضوعية: يقول أصحابه بأنه من الممكن أن نكتب الحقائق التاريخية بالضبط كما كانت في الماضي.
- تيار النسبية التاريخية: التاريخ عملية توالد مستمرة، ومن رواد هذا التيارفرود وماركس. هذا الأخير أدخل تجديدات في المنهج التاريخي، وذلك من خلال نظريته حول المادية التاريخية، حيث فسر حركة التاريخ بقوانين متعلقة بطبيعة العمل، والإنتاج وتوزيع الثروة بين المواطنين.

كما لا يمكن إغفال مساهمة المدرسة الرومانسية الألمانية، خاصة مع أعمال رانكه. الذي أحدث تطورا هاما في مناهج البحث التاريخي، باعتماده الدقة في تحليل الوثائق. وبدأت الدراسات النقدية للمصادر والوثائق التاريخية تفرض نفسها ضمن مناهج البحث التاريخي. يقول رانكه:

" الصرامة في تقديم الحقائق التاريخية هي القانون الأسمى في كتابة التاريخ..." (عبده، 2000، ص 186).

يعتبر أوغست كونت من رواد تطبيق المنهج العلمي في التاريخ، وتتمثل منهجيته في البحث عن قواعد وقوانين لتفسير حركية التاريخ، وأنشأ ما يسمى بالإيجابية التاريخية، أي التزام الدقة العلمية في كتابة التاريخ، والبحث في المنطق الدقيق وراء كل حادث. وتوجه أوغست كونت إلى فحص مختلف الوثائق ونقدها في إطار صناعة التاريخ، وأكد أن التاريخ لا يكتب بمنهج واحد، بل بمناهج عدة، ويقول:

"مختلف الخطابات للمنهج التاريخي، ومختلف الأنماط في كتابة التاريخ" (بن سلمان، 2000، ص 104).

5- المنهج التاريخي خلال الحقبة المعاصرة

عرفت الفترة المعاصرة بروز مدارس تاريخية، تنوعت وسائلها المنهجية ونظرتها للتاريخ، ومن أهم هذه المدارس: الوضعية، الحوليات، التاريخ الجديد.

المدرسة الوضعية

ظهرت بفرنسا أواخر القرن 19م، ومن روادها: لافيس، لانجوا ، سينيوبوس، مونود...

أفصح رائد هذه المدرسة مونود، بمناسبة صدور العدد الأول من المجلة التاريخية، مبادئ المدرسة الوثائقية في مايلي :

- فرض بحث علمي في التاريخ بعيدا عن المزايدات الفلسفية.
- بلوغ الموضوعية المطلقة في مجال التاريخ.
- تطبيق تقنيات صارمة في جرد الوثائق ونقدها.
- دور المؤرخ تجميع الوثائق وصيانتها وحفظها في الأرشيف.

تكمن خصوصية المدرسة الوضعية في الاهتمام بالأحداث السياسية والعسكرية، ودراستها من منظور متفرد ومعزول، في إطار مسار زمني ضيق وقصير وهو زمن الحدث (المدة القصيرة)، مع تقديس الوثيقة المكتوبة، فالتاريخ حسب رواد هذه المدرسة يصنع بالوثائق، ولا تاريخ بدون وثيقة كما يقول لانجوا وسينيوبوس، كما تخضع الوثائق بعد جمعها إلى نوعين من النقد.

النقد الداخلي: تحليل المحتوى وتحديد الظرفية التي كتب فيها باعتماد نص لغوي، قصد استخلاص قيمة المصطلحات.

النقد الخارجي: أصالة النص، صاحبه، مكانه، زمانه.

بعد عملية الترتيب والنقد يتم القيام بالتركيب، وذلك بمقارنة عدة وثائق وبجمع الأحداث المتفرقة، في إطار عام (سياسة، مجتمع، اقتصاد...)، ثم التحليل لربط الأحداث بعضها ببعض، ثم عملية التعميم واقتراح بعض التأويلات.

تعرضت هذه المدرسة لموجة من الانتقادات، خاصة من الحوليات وأهمها:

- الاهتمام بالتاريخ التأريخي، المرتكز على الوثائق المكتوبة دون الوثائق الأخرى.
- التركيز على الحدث الفردي في إطار الزمن السريع، بينما ينبغي الاهتمام بالحياة الاجتماعية، والتي لا تفهم إلا بالزمن الطويل والإيقاع البطيء.
- التركيز على الأحداث السياسية والعسكرية.
- المدرسة الوضعية لم تسع قط إلى إعطاء تأويلات كبرى في التاريخ، وأن تنجز محاولات تركيبية.

- إشكالية النسبية في التاريخ، وغياب الموضوعية المطلقة، كما أن الوثيقة قد تكون هامة في عصر ما وعديمة الفائدة في فترات لاحقة.

- غياب التأويل والروح التأليفية في أعمالها وبحوثها، وانحيازها إلى إيديولوجية سياسية معينة.

مدرسة الحوليات

تزعم هذه المدرسة مجموعة من المؤرخين الفرنسيين خلال من القرن 20م مثل: مارك بلوخ، لوسيان فيفر وفرناند بروديل، ولسانها " مجلة الحوليات".

جاء في توطئة عددها الأول، أن من أهدافها: العمل على تداخل العلوم الإنسانية، والإقلاع عن المزايدات النظرية قصد إنجاز أبحاث ميدانية وجماعية، تعتمد بالإضافة إلى الوثائق المكتوبة على مصادر أخرى كالآثار، وتمس كل المجالات بما في ذلك البنى الذهنية.

لعبت مدرسة الحوليات دورا بارزا في خلق تطورات في الكتابات التاريخية، على مستوى المنهج والموضوع. ودعا رواد هذه المدرسة إلى انفتاح التاريخ على مختلف العلوم سواء العلوم

الإنسانية أو الدقيقة. يقول لوسيان فيفر:

"سيساهم في كتابة التاريخ، اللغوي والأديب والجغرافي والقانوني والطبيب وعالم الأجناس والخبير بمنطق العلوم..." (بن سليمان، 2000، ص 104).

تمكن المؤرخون من التزود بأدوات بحث جديدة جعلتهم يعيدون النظر في كثير من الوقائع التاريخية، ويطرحون أسئلة جديدة ومشكلات تاريخية، لم تكن إلى عهد قريب في متناول المشتغلين بالتاريخ، وستعمل هذه المدرسة على تهميش التاريخ الحدث، والتاريخ السياسي لصالح التاريخ ذي الإيقاع البطيء، والقضايا الاقتصادية والتنظيمات الاجتماعية والديمغرافيا التاريخية وتاريخ الذهنيات.

كما تم طرح مشكلات كبرى للإنسان في سياق الزمن التاريخي الطويل، وذلك قصد إخراج الكتابة التاريخية من نمطية الحدث السياسي والوقائع الضيقة (العروي، ج1، 1997، ص 187).

وعموما، فان مؤرخي مدرسة الحوليات أحدثوا قطيعة ابستمولوجية مع الاتجاه السابق في الكتابة التاريخية، فقد عملوا على تجاوز التاريخ الحدثي، ودعوا إلى تاريخ إشكالي يقر بأهمية العوامل التركيبية في دراسة التاريخ (ضاهر، 1989، ص 31).

لقد ساهم ظهور هذا الاتجاه الجديد في الدراسات التاريخية في إثارة مجالات جديدة للبحث، كتاريخ الذهنيات والطقوس اليومية والخوف والجسد...الخ. خصوصا وأن البحث التاريخي اغتنى بمناهج جديدة ومتنوعة. وفي هذا الصدد يقول الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو:

"يتوفر على أدوات صاغوها بأنفسهم في جانب منها، وتلقوها في جانب آخر كنماذج النمو الاقتصادي، والتحليل الكمي ومنحى التغيرات الديمغرافية، ودراسة المناخ وتقلباته، ورصد الثوابت السوسيولوجية. لقد مكنتهم تلك الأدوات من أن يبينوا داخل حقل التاريخ طبقات رسوبية متباينة، فحلت مكان التعاقبات الخطية التي كانت حتى تلك الآونة تشكل موضوع البحث التاريخي عمليات سبر الأغوار وتعدد مستويات التحليل" (الخصاصي، 1986، ص 5).

وعليه فان دراسة الماضي أصبحت تقوم على رؤية متعددة المقاربات. فبذل النظر إلى الوقائع التاريخية المدروسة من وجهة نظر أحادية الجانب لتفسيرها وتعليلها، أصبح لزاما على المؤرخ استحضار كل العناصر والعوامل الأخرى. والتي قد يكون لها دور في بناء الأحداث والوقائع التاريخية. ومنه يمكن القول إن الظاهرة التاريخية تبنى وتشيد لبنة لبنة. لقد بين لاندري بورغيير في الأنثربولوجية التاريخية أن كل بعد من أبعاد الواقع الاجتماعي يتواصل مع باقي الأبعاد الأخرى لصناعة حركة التاريخ (بورغير، 1994، 102).

ومن المعلوم، أن علم التاريخ يدرس ظواهر إنسانية والظاهرة الإنسانية كما هو معلوم تتميز بالكثير من التعقيد. حيث تتداخل في توجيهها عوامل كثيرة إلى درجة يصعب حصرها، وتحديد نصيب كل منها في توجيه الظاهرة التاريخية المدروسة. وهو الأمر الذي يستوجب على المؤرخ استحضار كل الأبعاد والمستويات التي تدخل في تركيبة الحياة الإنسانية (بيولوجية، نفسية، مجالية، اقتصادية، اجتماعية، وسياسية...). مما يطرح الكثير من المشكلات أمام المؤرخ أثناء دراسته للتاريخ.

ويمكن استقراء خصائص مدرسة الحوليات، عبر تحديد أفكار روادها خاصة مارك بلوك ولوسيان فيفر وفرناند بروديل.

مارك بلوك:

أهم كتبه: "مهنة المؤرخ"، "ملوك وأقنان"، "الملوك صانعوا المعجزات"، "المجتمع الفيودالي"، و"المميزات الأصلية للتاريخ القروي الفرنسي".

أكد مارك بلوك على ضرورة إلمام المؤرخ بعلوم مختلفة، مثل: الآثار، الديمغرافيا، الجغرافيا، الإحصاء، الفن، اللغات، الاقتصاد، والاجتماع... كما قام بتوسيع مفهوم الوثيقة، باعتماد مصادر أخرى، مثل: البقايا الأثرية والفنية والمسكوكة وأسماء الأماكن، والكشف عن مواضيع جديدة في التاريخ، فركز على تحليل الأحداث الاقتصادية، وربط البنى الاقتصادية بالطبقات الإجتماعية على شاكلة كارل ماركس.

ففي كتابه "مهنة المؤرخ"، دافع بلوك على أهمية الفهم في الكتابة التاريخية وتجنب المؤرخ للأحكام التقييمية، والتخلي عن الأحكام المسبقة والمشاعر والميولات الفردية. قصد بلوغ المعرفة الموضوعية التي هي هدف تشيده مختلف المدارس التاريخية، كما يجب فهم الماضي انطلاقا من الحاضر، وفهم الحاضر انطلاقا من الماضي (بن سليمان، 2000، ص 110).

أما في مؤلفه " المميزات الأصلية للتاريخ القروي الفرنسي"، تحدث مارك بلوك عن استغلال الأرض وتقنيات الإنتاج والبنية السكانية.

أما في كتابه " الملوك صانعوا المعجزات"، تأثر بالأنثروبولوجيا والفلكلور، مبلورا ما يسمى بالأنثروبولوجيا التاريخية وتاريخ الذهنيات، ووظف مناهج مختلف العلوم مثل الجغرافيا، الاقتصاد، الديمغرافيا، الاجتماع، اللسانيات.

لوسيان فيفر:

ركز اهتماماته على القرن 16م في إطار تاريخ العقليات، وهذا ما يتمثل في " ديانة رابلي"، و"حياة مارتن لوثر"، وأصدر عدة مؤلفات أهمها "الأرض وتطور البشرية"، وسعى فيفر إلى توثيق الصلة بين التاريخ والجغرافيا، كما دعا إلى خلق تواصل بين الباحثين في العلوم الإنسانية، بهدف القضاء على عقدة التخصص، وتشجيع التناهج.

انتقد لوسيان فيفر التاريخ التأريخي والاقتصار على الوثائق المكتوبة. وأكد على أهمية الانطلاق من الاقتصادي للوصول إلى ما هو سياسي وليس العكس، كما يكتب التاريخ من مختلف الشواهد غير المكتوبة، حيث يقول:

"لا شك أن التاريخ يكتب اعتمادا على الوثائق المكتوبة، إن وجدت. لكن يمكن، بل يجب، أن يكتب اعتمادا على كل ما يستطيع الباحث، بمهارته وحذقه، أن يستنبطه من أي مصدر: من المفردات والرموز، من المناظر الطبيعية ومن تركيب الأجر، من أشكال المزارع ومن الأعشاب الطفيلية، ومن خسوفات القمر ومن مقارن الثيران، ومن فحوص العالم الجيولوجي للأحجار ومن تحليلات الكيميائي للسيوف الحديدية" (العروي، ج1، 1997، ص 81).

فرناند بروديل

برز نجم المؤرخ الفرنسي فرديناند بروديل، الذي يعتبره الكثير من المؤرخين المعاصرين رائد الكتابة التاريخية في العصر الحديث. فهو – وبشهادة هؤلاء- واضع الدعائم الرئيسة لما أصبح يعرف بالتاريخ الجديد، و الذي أصبح من أهم سماته انتفاء الحدود بين التاريخ و السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا .ولقد مثلت أطروحته الشهيرة "المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني" هذا التوجه، والتي دعا فيها إلى تجاوز ونبد التاريخ السردي /الإخباري، القائم على دراسة الوقائع السياسية البسيطة في الأزمنة القصيرة، والانتقال إلى دراسة تاريخ البنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وذلك في سياق المدد الزمنية الطويلة، بهدف رصد مدى تفاعل الإنسان مع مجاله الجغرافي.

ميز فرديناند بروديل في دراسته للزمن التاريخي بين ثلاثة مستويات:

- الزمن الجغرافي: وهو زمن المدد الطويلة وزمن البنيات يتميز بتغيره البطيء.
- الزمن الاجتماعي: وهو زمن الظرفيات وزمن المدد المتوسطة، مثل تاريخ تطور الاقتصاد والمجتمع.
- الزمن الفردي: ويطابق زمن الوقائع والأحداث السياسية كالحروب والمعاهدات وحكم الملوك.

كما اهتم بروديل بالمنهج، في مؤلفه " كتابات حول التاريخ"، ودعا فيه إلى ضرورة توحيد العلوم الإنسانية عبر ربط الماضي بالحاضر، وإنشاء أسس تاريخ كلي.

تعرضت الحوليات بدورها لنقد لاذع، كون المناهج المعتمدة في نقد الوثائق مشابهة لتلك المستعملة، من طرف العلماء ما بين القرنين 17م و19م ، باستثناء التاريخ الاقتصادي فتحليل بعض النصوص يبدو سطحيا وفي جهل تام، لأبجديات اللسانيات والايكونوغرافيا (دراسة التماثيل والرسوم)، ويتم التركيز على الجمهور الواسع والحياة الجنسية، إلى جانب المناخ والعقليات واللاشعور والأكل والشرب والحياة والموت والقراءة والكتابة والاحاسيس، كما يتم تفضيل الهامش على المركز (كالسحرة والمنحرفين)، والحياة المعكوسة (المتخيل، الأحلام، الايديولوجيا...)، إنه فرع من الرومانسية الجديدة بعد الاهتمام لمدة قرون بالكرونولوجيا، مما جعل الكتابات التاريخية تسقط في حبال الموضة.

يعتقد الحوليون بأن التاريخ يسير بوثيرة معينة، ولكن في نفس الوقت لا يسير نحو هدف معين، وهذا ما أضفى على تحليلاتهم نوعا من الارتباك في تحديد غائية التاريخ وسيرورته والتأويلات الكبرى لمستقبل الإنسانية التي اقترحها فيكو، كروتشي، هيغل وديلتاي. كما أن إعطاء الأولوية إلى الأزمنة التاريخية الطويلة، أدى إلى تركيز الإنتاج التاريخي الحولي على الفترات الحديثة والوسيطة وإهمال التاريخ القديم والمعاصر.

يوجه عبد الله العروي عدة انتقادات لمدرسة الحوليات وتتمثل في:

- منهجية بلا قاعدة نظرية.

- إخفاق التناهج فقد يتحول عالم الطبيعيات إلى مؤرخ، ولكن في حقله وميدانه دون أن ينجم عن عمله هذا أي تفاهم فعلي مع المؤرخ المحترف.

مدرسة التاريخ الجديد

انبثقت عن مدرسة الحوليات خلال السبعينات من القرن الماضي مدرسة " التاريخ الجديد"، والتي أولت اهتماما بكل المجالات بدون استثناء، ورفضت كل نسق تفكير منظم (بن سليمان، 2000، ص 111). ويمثل هذا الاتجاه كل من جورج دوبي، لووا لادوري، جاك لوكوف، جاك ريفيل، روجي شارتييه...

وجه رواد التاريخ الجديد انتقادات لمدرسة الحوليات:

- عدم إنشاء تصور موحد للتاريخ بتشجيع التجزئة والانقسام.

- أن هذه المدرسة اكتفت بإحياء النظريات الماركسية.

- الإفراط في توجيه التاريخ نحو الأبعاد الاثنوغرافية والتاريخ النفسي.

حاولت المدرسة التاريخية الجديدة بناء مقاربة علمية للتاريخ، بعيدا عن النظرية اللاهوتية والتفسيرات الغائية، لأن المؤرخ كالفيزيائي عليه أن ينطلق من فرضيات يجب التحقق من صحتها، في إطار "التاريخ المشكل". ويشير جاك لوكوف في كتابه "التاريخ الجديد": علينا أن نهتم بالتاريخ الاقتصادي والديمغرافي وتاريخ التقنيات وبالتقاليد، بدل التركيز فقط على التاريخ السياسي والحزبي والدبلوماسي، كما على المؤرخين أن يهتموا بالإنسانية جمعاء وليس بالكبار والملوك، وبالتاريخ التفسيري وليس التاريخ السردي أي التاريخ الشامل.

يعتبر ميشليه أهم رواد التاريخ الشامل، الذي يرتكز على تاريخ عميق بعيدا عن السياسة، وقريب من الثقافة المادية والمناخ والمأكولات والمجال والثقافة الروحية. وتم تسطير مسار أخر للتاريخ الشامل بارتباط مع الفعل الاجتماعي، كما حدده مارسيل موس. ويتم ذلك عبر مقاربة فعل اجتماعي خاص، يرتبط بمجموع المنظومة ويفصح عن بنياتها العميقة.

لكن هناك صنف أخر من المؤرخين يفضلون الكشف عن الترابط لسلسلة من الوثائق، في إيقاع بطيء وعبر إنشاء " التاريخ الجدولي"، وتنظيم الفعل التاريخي في جداول زمنية متجانسة.

ومن الأمور الجديدة لهذه المدرسة، الكشف عن شواهد جديدة وإعادة قراءة الشواهد القديمة، مثل: الأركيولوجيا الجوية، والكشف عن مآثر تاريخية مجهولة واستغلال الروايات المتعلقة بالأعياد والمراسيم. وبفعل أعمال أرون تم إحياء الاهتمام بالمطبخ والحياة الاجتماعية والقيمة الغذائية والأذواق.

واستفادت المدرسة الجديدة من التوجهات الماركسية، عبر توظيف مفاهيم مثل: البنيات العميقة، التحليل الكمي. وظهر توجه جديد هو تناول الإطار المكاني الضيق، أي ما يسمى "المونوغرافية".

خاتمة

هذه بشكل عام الخطوط العريضة لتطور مناهج البحث التاريخي في الدراسات التاريخية، منذ فترة ما قبل الميلاد حتى صار علما له مناهجه وفروعه المختلفة. وتطور البحث في التاريخ لم يكن يتم بمعزل عن تطور العلم التاريخي نفسه، وثمة علاقة جدلية بين تطور مناهج البحث التاريخي والتطور المعرفي للعلم نفسه. ويمكن أن نقرر أن التطور الذي شهده القرن 20م، في مجال الدراسات التاريخية وتطور منهج البحث التاريخي قد خلق ثورة في هذا المجال توازي في انجازاتها، أضعاف ما تحقق عبر العصور الطويلة التي قطعها علم التاريخ.

ولأن الإنسان يحتاج دائما إلى قراءة ماضيه، بشكل يخدم حاضره ويساعده على بناء مستقبله، فإن الحاجة الثقافية والاجتماعية المستمرة والمتجددة، وسعت من نطاق الدراسات التاريخية من ناحية، كما أنها أحدثت تطورا مذهلا في مناهج البحث التاريخي من ناحية أخرى، وصارت المعرفة التاريخية حافلة بالقراءات المتنوعة.

إن تعامل المؤرخ مع مجالات متنوعة (اقتصاد، مجتمع، سياسة...)، وحقب تاريخية عديدة (قديمة، وسيطة، حديثة، معاصرة)، وشعوب مختلفة يمكنه أن يلمس الفوارق بين الأمم والأزمنة والمجالات، ويدرك أنه لا يدرس في الواقع تاريخا واحدا بل تواريخ متعددة، من حيث الزمان والمكان والموضوع، مما يجعل المؤرخ يسعى دوما إلى معرفة الإنسان، وفهم علاقاته بغيره وبمجاله في عصر من العصور، وفي ظروف تاريخية معينة.

قائمة البيبليوغرافيا

- ابن خلدون، عبد الرحمان. (2004). *المقدمة* (أحمد الظاهر، محقق). القاهرة: دار الفجر للتراث.
- السخاوي، شمس الدين. (1964). *الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ*. العراق: بغداد.
- بن السلمي، محمد. (1986). *منهج كتابة التاريخ الاسلامي وتدريسه*. المنصور: دار الوفاء للطباعة.
- أبو ضيف، أحمد. (1987). *منهج البحث التاريخي بين الماضي والحاضر*. الدار البيضاء: مطبعة النجاح.
- هورس، جوزيف. (1986). *قيمة التاريخ* (نسيم نصر، مترجم) (ط. 3). بيروت: منشورات عويدات.
- بن سليمان، فريد. (2000). *مدخل إلى دراسة التاريخ*، تونس: مركز النشر الجامعي.
- جوتشلك، لويس. (1966). *كيف نفهم التاريخ؛ مدخل الى تطبيق المنهج التاريخي* (عائدة سليمان ومصطفى أبو حاكمة، مترجمان). بيروت: دار الشباب العربي.
- ديورانت، ويل. (1988). *قصة الحضارة* (المجلد 2). بيروت: دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع.
- عبده، قاسم. (2000). *تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية*. منشورات جامعة الزقازيق.
- ويدجري، آلبان. (1972). *التاريخ وكيف يفسرونه* (توفيق جاويد، مترجم). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- العروي، عبد الله. (1997). *مفهوم التاريخ؛ الجزء الأول* (ط. 3). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- ضاهر، مسعود. (1989). بروديل والنظرية المتوسطية. *مجلة الفكر العربي المعاصر*، (43)، 31-45.

- الخصاصي، المصطفى. (1986). *قضايا ابستيمولوجية وديداكتيكية في مادتي التاريخ والجغرافيا*. الدار البيضاء: مطبعة النجاح.
- بورغيار، أندريه. (2007). الأنثروبولوجيا التاريخية. في *التاريخ الجديد*. (ص. 235-276). بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.

Romanization of Arabic Bibliography

- Ibn Khaldun, Abd al-Rahman. (2004). *Al Mokadima [Introduction]* (Ahmed Al-Zaher, investigator). Cairo: Dar Al-Fajr for Heritage.
- Al-Sakhawi, Shams Al-Din. (1964). *al-āʿlān bāltūbīḫ lmn ḏm ahl al-tārīḫ [Announcing a rebuke to those who slandered the people of history].* Iraq: Baghdad.
- Bin Al-Sulami, Muhammad. (1986). *Curriculum for writing and teaching Islamic history*. Al-Mansour: Dar Al-Wafaa for printing.
- Abu Deif, Ahmed. (1987). *The historical research method between the past and the present.* Casablanca: An-Najah Press.
- Ben Suleiman, Farid. (2000). *An Introduction to the Study of History*, Tunisia: University Publishing Center.
- Abdu, Qasim. (2000). *The development of the research method in historical studies*. Zagazig University Publications.
- Laroui, Abdullah. (1997). *concept of history; The first part* (3nd Ed.). Casablanca: Arab Cultural Center.
- Daher, Masoud. (1989). Braudel and the Mediterranean theory. *Journal of Contemporary Arab Thought*, (43), 31-45.
- Al-Khasasi, Al-Mustafa. (1986). *qḍāīā abstīmūlūğīẗ ūdīdāktīkīẗ fī mādtī al-tārīḫ wālğğrāfīā [Epistemological and didactic issues in the subjects of history and geography].* Casablanca: An-Najah Press.